د. صالح زهر الدين

دور الحروب في تدمير المعالم والكنوز الثقافية والحضارية

عيّنات ونماذج

فعلاً، كم كان الإمام علي بن أبي طالب (رض) مصيباً في قوله: «نعمتان مجهولتان، الصحة والأمان». والأمن والأمان، بطبيعة الحال، نقيضان للحرب... وجميعها أساسها الإنسان، ومحورها الإنسان، وغايتها وهدفها الإنسان.

إذ منذ وجود البشرية، كانت الحرب ظاهرة إجتماعية بالدرجة الأولى، ومذبحة كبرى للإنسان على يد أخيه الإنسان[1].

وعلى هذا الأساس، فقد ارتبطت الحروب بتاريخ البشرية في إطار صراع جماعي دامٍ ومميت لأنها تحمل في أحشائها الموت المنظّم. وكان هناك صناعة مستمرة للحروب، في وقت اعتبرها البعض حاجة وضرورة، باعتبارها الحدود التي ترسم المنعطفات الكبرى للأحداث.

وإن الحرب كانت ولا زالت هي الواسطة الأساسية بيد القادة السياسيين والعسكريين، كما بيد الشعوب لتبديل حالة سياسية راهنة. ولذلك قال هيراقليطس أن «الحرب هي أم جميع الأشياء، فهي تصنع الآلهة كما تصنع العبيد».[2] ولأنها كذلك، فهي ظاهرة تاريخية كبرى، والأساس التي بُنيت عليه الفوارق بين البشر، ذات علاقة وثيقة بالسياسة والإجتماع والإقتصاد والدين والفكر والقانون والإعلام والديموغرافيا، كما بالناحية العسكرية... لكن العنصر البشري يبقى هو المحور الأساسي فيها، لأنها «أقدم ظاهرة بشرية عرفها التاريخ» ورافقت المجتمعات البشرية منذ فجر الحضارة

---

[1]– راجع كتاب «الحروب والحضارات»، إصدار المؤسسة الفرنسية للدفاع الوطني، ترجمة أحمد عبد الكريم، دار طلاس، دمشق، الطبعة الثالثة 1992، ص 37.

[2]– المرجع السابق نفسه، ص 38.

الإنسانية حتى اليوم... إضافة إلى أنها «حرب عقول وأدمغة» أيضاً... وصراع إرادات: صراع في الصدور قبل أن تكون صراعاً في الميدان....

والجدير بالذكر، أن كثيراً من الإمبراطوريات الكبرى في التاريخ قامت من خلال الحروب. ومن خلال الحروب دُمّر كثير من هذه الإمبراطوريات... كذلك الحال بالنسبة للحضارات الإنسانية، حيث أن جميع الحضارات المنقرضة هدمتها الحروب، لأن الحرب تعتبر «الإبنة القاتلة» للحضارة، وهي في الوقت نفسه أمّها ومرضعتها[3]... مع العلم أن لكل عصر حروبه وقوانينه واستراتيجيته... وأن السّلام يكمن في الحرب، كما تكمن الحرب في السلام، باعتبار أن الحرب «مُوَلِّدة المجتمعات ومجهضتها» في الوقت نفسه...

ولهذا نجد الشاعر الفرنسي بول فاليري يقول بأن «الحضارات فانية». لكن الواقع يؤكّد بأن الحضارات تختفي بالموت العنيف، لأنها تنشأ وتنهار بشكل دائم تقريباً في أتون الحروب. إذ أن الوظيفة الأساسية للحرب هي «الدمار والتدمير». وعندما تزول إحدى الحضارات، لا يبقى إلا التاريخ الذي كتبه المنتصرون على هواهم، ومن الطبيعي أن تهيمن على هذا التاريخ مبرراتهم وأمجادهم[4]. وهذا ما تطرق إليه الباحث الاستراتيجي الجنرال جان بيريه بقوله: «ان الحرب هي صراع جماعي مميت، وهذه هي صفاتها الأساسية، وما المبادئ التي تحكمها سوى قواعد السلوك المنبثقة من هذه الصفات...»[5].

أَلَيس معظم الحضارات في التاريخ كتب على صفحات من حجارة، قبل أن يُعرف الورق والكتاب؟ وكم من حضارات حفرتها أزاميل أبنائها إنجازات وإبداعاتٍ للبشرية جمعاء، دون تمييز في اللون أو العرق أو الجنس أو الجنسية أو اللّغة؟

---

[3]– أنظر كتاب «الحروب والحضارات» إصدار المؤسسة الفرنسية لدراسات الدفاع الوطني، ترجمة أحمد عبد الكريم، المرجع السابق، ص 10–37.

[4]– للتوسع في ذلك، راجع كتاب «الحروب والحضارات»، مرجع سابق، ص 43–44 و49–50.

[5]– الجنرال جان بيريه «الذكاء والقيم المعنوية في الحرب»، تعريب: أكرب ديري والمقدم الهيثم الأيوبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، الطبعة الأولى 1981. ص 19.

وكم من الحروب بالمقابل التي دمّرت هذه الإبداعات والإنجازات الإنسانية على مرّ عصور التاريخ وأزمانه؟

هذا، وإذا كانت الحضارة من صنع الإنسان (وليس الإنسان من صنع الحضارة)، فإن هذا الإنسان ذاته هو الذي يهدم هذه الحضارة ويدمّرها ويزيل آثارها من الوجود...

أليس ذلك هو التعبير الحي عن «وحدة وصراع الأضداد» في الإنسان نفسه الذي يبدع ويبني كما يهدم ويدمّر؟

وفي هذا الإطار، يبدو أن الباحث جوزف مايستر كان على حق عندما قال أن «الدم هو سماد نبتة العبقرية»... حيث لا حرب بدون قتل ودم... تبدأ به، وتستمر معه وتنتهي دون تعويض ضحاياه أو تخفيف خسائره... ولهذا قال غاستون بوتول أن «الحرب هي مؤسسة دمار إجتماعية»[6]، لذلك فإن ساحة كل حرب تنجلي في النهاية عن منتصر ومهزوم، وبين الإثنين: حقل من جثث ودم...

وبدوره يقول ميكافيللي إن «البشر والأسلحة والمال والخبز هي قوة الحرب الحياتية. الشرطان الأولان هما الأكثر أهمية من بين هذه الشروط الأربعة، لأنه بالبشر والأسلحة يمكن الحصول على المال والخبز»[7].

ومع ذلك، لم تكن الحرب ولا الأسلحة يوماً، نافعة للإنسانية في أيّ ميدان من ميادينها، باعتبار أن الشعوب – بدون تمييز – كانت أبرز وقودها، كما كانت ضحاياها البريئة... وما أسهل التبريرات لدى الحكام والحكومات وصنّاع القرار، الذين يحضّرون للحرب ويصدّرون القرارات بإشعالها... وكأن أدمغتهم وعبقريتهم تعطّلت عن إيجاد الوسائل والطرق الكفيلة باستبعاد هذا النهج العنفي الدموي اللاإنساني، والمخالف لأبسط القوانين والأعراف الإنسانية...

---

[6]– راجع كتاب غاستون بوتول «ظاهرة الحرب»، ترجمة إيلي نصّار. دار الفارابي، بيروت، الطبعة الأولى 2007.

[7]– يعتبر كتاب «الأمير» لمكيافيللي من الكتب الهامة على صعيد الحكم والسلطة...

ومن هذا المنطلق، نجد الباحث إيدي فور (Edie Faur) يقول: «إن الوهم الكبير، ليس في الإعتقاد بأن الحرب تُكْسِبْ، بل في الإعتقاد بأننا نقوم بها لأنها تُكْسِبْ لقد كانت الحرب إحدى ألعاب الإنسان التي لا مصلحة له فيها أبداً»[8].

بيد أن الباحث الإستراتيجي ريتشارد نيد ليبو (Richard Ned Libow) يعمد إلى تشريح الدوافع الأساسية التي تحدو بالدول إلى شنّ الحرب، مؤكّداً أنه، «تاريخياً هناك أربعة دوافع عامة حدت بالدول إلى بدء الحرب وهي: الخوف، والمصلحة، والمكانة، والإنتقام... ثم يشير إلى أن نسبة ضئيلة من تلك الحروب مدفوعة بالأمن أو المصالح المادية. وبدلاً من ذلك، فقد نجمت أغلبية الحروب بسبب السعي إلى تحقيق المكانة، وبسبب الإنتقام، أي محاولة الثأر من دول نجحت في السابق في الإستيلاء على أراضي الدولة البادئة...»[9].

والجدير بالذكر، أن الحضارة الإنسانية – أية حضارة– تتميّز بشروط ومظاهر، كما أن لكل حضارة مصادرها الأساسية. ولعلّ النقوش والآثار والمخلّفات الأثرية الحضارية، والوثائق والمخطوطات، تمثل عصب الحياة للحضارة. وإذا كانت هذه الآثار عبارة عن «أثر صامت»، إلا أنها «ناطقة» في الوقت نفسه، والإنسان هو الذي ينطّقها، إن لم تكن قادرة على النطق...

في هذا الإطار، يقول أحد الكتّاب: «إذا طُلب من إنسان أن يعرّف عن نفسه، فإنّه يقدّم بطاقة هويته الشخصية أو إخراج قيد أو جواز سفر، أو ما شابه. أما إذا طُلب من أمّة أن تعرّف عن نفسها، فإنها تقدّم علماءها ومؤرّخيها ومفكّريها وفلاسفتها وأطباءها ومهندسيها وفنّانيها وعباقرتها وأبطالها

---

[8]– جاء ذلك في كتاب: Edie Faure, Regards sur la terre promise (نظرات حول الأرض الموعودة) وقد ذكرها غاستون بوتول في كتابه «ظاهرة الحرب»، مرجع سابق، ص 297.

[9]– أنظر كتاب ريتشارد نيد ليبو "Why Nations fight past and future Motives for war". Ed. Cambridge university press, UK 2010.

وقد تولى المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في الكويت ترجمة هذا الكتاب ضمن سلسلة «عالم المعرفة» (رقم 403) تحت عنوان: «لماذا تتحارب الأمم؟ دوافع الحرب في الماضي والمستقبل». ترجمة د. إيهاب عبد الرحيم علي، الكويت، آب/أغسطس 2013، ص 18–32.

ومخترعيها وكتّابها ومثقفيها بطاقة هوية لها». بمعنى آخر، إنها تقدّم تاريخها وثقافتها وتراثها وحضارتها كبطاقة تعريف لها، مرفقة بإنسانها الذي هو المحور والمبتغى والأساس.[10]

ومن هذا المنطلق، قيل أنه «لا إنسان بلا تاريخ، ولا تاريخ بلا إنسان»... وبالتالي لا إنسان بلا حضارة ولا حضارة بلا إنسان. باعتبار أن الحضارة هي من نتاج العقل البشري في صُوَرِهِ المختلفة. وفي ضوء ذلك، يرتبط التاريخ إرتباطاً وثيقاً بالحضارة، كما ترتبط الحضارة بدورها إرتباطاً وثيقاً بالتاريخ، فيغدو التاريخ عندها «تاريخاً حضارياً»، وتغدو الحضارة «حضارة تاريخية» تتعلق بالبشرية جمعاء، كمادة أساسية لها.. ولذلك كان الفيلسوف الصيني كونفوشيوس على حق عندما قال: «إنْ أردت التنبؤ للمستقبل، فتمعّن في الماضي».. لذلك كان التاريخ بمثابة «ذاكرة البشرية».. و«تاريخ الحروب» في آن واحد – كما يقول بوتول.[11]

وبما أن عصور التاريخ بدأت باختراع «الكتابة»، فقد مثّلت الكتابة أهم وسيلة لحضارة الإنسان. وحيثما وجدت الحضارة، وجدت الكتابة والقراءة، وأصبحت اللغة المكتوبة وسيلة للحضارة والعلم والتربية. كما أن الكتابة تعطي المعرفة البشرية صفة الديمومة والبقاء والإستمرار. ولهذا السبب إحترم القدماء الكتابة وأقاموا آلهة لها وعبدوها...

أَلَيسَ «في البدء كان الكلمة»؟ وأَلَمْ يكن أمرُ الله تعالى: «إقرأ باسم ربّك الذي خلق»؟ و«علّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم»؟ ولكن من ناحية أخرى أيضاً، إن الحرب تبدأ بكلمة...

ومما لا شك فيه، أن الأبجدية هي أساس كتابة عصور التمدّن الحديث، وهي أرقى أنواع الكتابة وأنسبها وأسهلها... وهي آخر المراحل في تطوّر الكتابة، التي اخترعتها بلاد العرب قبل غيرها في العالم. وقد كانت «الأبجدية الفينيقية» أرقى أنواع الحضارة واختراعاتها، التي كانت ولا تزال، السبب الأبرز في التقدم والتطور البشري منذ آلاف السنين. وإذا كانت «الفلسفة» هي مفخرة الإغريق اليونانيين للحضارة العالمية، وإذا كان «القانون» مفخرة الرومان لهذه الحضارة، فإن أساس هاتين

---

[10]– د. صالح زهر الدين «موسوعة معارك العرب»، دار الندوة الجديدة، بيروت، الطبعة الأولى 2000، ص 14.

[11]– أنظر كتاب غاستون بوتول «ظاهرة الحرب»، مرجع سابق، ص 8 والغلاف الأخير.

المفخرتين هو «الأبجدية الفينيقية» والحضارة الكنعانية الأمّ – باعتراف المؤرّخ اليوناني هيرودوت نفسه المعروف بـ«أبو التاريخ»–.

رغم كل ذلك، يبقى الصراع بين الخير والشرّ قائماً ومستمراً، وكأنّه قطار لا محطات له، ولا استراحات، منذ بداية البشرية، إلى ما لا نهاية، طالما هناك بشر تعشّش في نفوسهم وعقولهم وجوارحهم نزعة التسلّط والهيمنة والإستقواء... إضافة إلى آفة «العمى» التي لا تقتصر فقط على بصرهم، ولا تنحصر بحاسة النظر لديهم فحسب، بل تطغى على كل الحواس التي يمتلكونها، فتمتلكهم وتتملّكهم، وليس العكس...

على هذا الأساس، نجد الكاتب سمير عطالله مصيباً في قوله: «يكون العمى البشري أحياناً في أفضلية البشرة، أو الدين، أو الإعتقاد...»[12]. أَلَيْسَ من هذا القبيل، شنّ الإنسان الأبيض في الولايات المتحدة حروبه الإبادية الدموية ضد سكان البلاد الأصليين من «الهنود الحمر» – لأن بَشَرَتهم واعتقادهم وإنسانيّتهم مختلفة – كما ضدّ الزنوج (السّود) الأرقّاء – لأن لونهم وبَشَرتهم تختلف أيضاً عن البشرة البيضاء للإنسان الأوروبي الآتي إلى أميركا للتملّك والسيطرة على من فيها وما فيها؟ – أليست «البَشَرة الهتلرية» و«العرق الجرماني» كانا سبباً في إشعال الحرب العمياء (الحرب العالمية الثانية) التي دامت ستّ سنوات، وكبّدت البشرية مئات الملايين من القتلى والجرحى والجوعى والمشرّدين والمهجّرين، فضلاً عن الخسائر في الممتلكات والمرافق والمؤسسات والكنوز والمعالم الأثرية والتاريخية والحضارية، في كل المناطق التي طالتها كارثة الحرب وهمجيتها... نعم هذا ما حصل في تلك الأيام وأسلحة تلك الأيام... ولكن ماذا عن أسلحة أيامنا هذه، ولا سيّما السلاح النووي، وأسلحة الدمار الشامل؟

لعلّ أفضل الإجابات على هذا التساؤل، تتمثل في الصرخة المدويّة التي أطلقها الباحث الإستراتيجي والإجتماعي «ألبير جاكار» قبل رحيله قائلاً: «دمّروا سلاح الدمار الشامل».

---

[12]– جاء ذلك في مقالته بجريدة «النهار» (اللبنانية)، الأربعاء 2014/1/15.

والواقع أن هذه الصرخة كانت نتيجة للبحث الهام الذي أجراه ألبير جاكار مع رفيقه ستيفان هيسيل، وإصداره في كتاب على جانب كبير من الأهمية على الصعيد الإنساني الشامل، عنوانه: «طالبوا بنزع شامل للسلاح النووي»[13].

في هذا الكتاب، يدقّ جاكار وهيسيل جرس الإنذار لتوعية الإنسانية بهذا الخطر الداهم: فهما يؤكدان أنه يوجد اليوم 20 ألف رأس نووي، تعادل القوة التدميرية لكل منها 30 مرّة قوّة القنبلة الذّرية النووية التي ألقيت على هيروشيما (في 3 آب 1945)، ما يعني أن الطاقة التدميرية للسلاح النووي الذي يوجد اليوم في حوزة الدول النووية تعادل في مجموعها 600 ألف قنبلة هيروشيما... وهذا الخطر الداهم الدائم ناجم عن أن ثمّة 1800 رأس نووي هي في «حالة تأهّب قصوى» يمكن أن تنطلق في أية لحظة، كما أنه ناجم عن كون المسؤولين المعنيّين بشؤون إطلاق هذه الرؤوس النووية، من سياسيين وعسكريين وتقنيّين، يعانون من إضطرابات نفسية وعقلية وخلقية لا تجعلهم موضع ثقة على الدوام، بل إن ثمّة ما يدعو إلى نزع الثقة عنهم ومنهم، حيث في أية لحظة وبحجّة إختلال التوازن الإستراتيجي الدولي، أو بحجّة تهديد المصالح الحيويّة لهذه الدولة النووية أو تلك، أن يلجأ هذا المسؤول أو ذاك إلى الضغط على زرّ نووي لتحدث الكارثة المحقّقة، تماماً مثلما حدثت كارثتا هيروشيما وناغازاكي عام 1945.

والجدير بالذكر، أن صراع النفوذ والسيطرة على العالم، والذي أفرز بدوره سباقاً على التسلّح في القرن العشرين، كان قد ولّد حربين عالميّتين، حصدتا ملايين الأرواح، والخراب والدمار في النفوس والممتلكات... فكيف الحال اليوم بشأن السباق على السلاح النووي وامتلاك سلاح الدمار الشامل؟ أَلَيسَ إسمه يدلّ عليه «سلاح الدمار الشامل»؟ وأيّ إنسان بالتالي في هذا الكون هو «الرابح» من جرّاء استخدام هذا السلاح النووي؟ وأيّة بشرية ستتابع مسيرة الحياة بعد هذه التجربة الكوارثية؟ وأيّة

---

[13] –Albert Jakar et Stéphane Hicile "Exiger un désarmement nucléaire total". Paris. Avril 2012.
وقد عالج هذا الموضوع مدير مكتبة «معهد العالم العربي» في باريس الطيّب ولد العروسي، شارحاً في مقالة له، النقاط الأساسية في هذا الكتاب. وقد نشرت هذه المقالة في «نشرة مؤسسة الفكر العربي» في بيروت «أفق»، العدد 28، في 1 كانون الثاني 2014، ص 10.

طبيعة ونبات وحيوانات ومياه ستنجو من آثار التجارب النووية؟ فهل هذه هي «ثقافة الحياة» التي ينادي بها العالم الغربي والشرقي الآسيوي؟ أم ماذا؟ وإذا كانت دول وامبراطوريات قد زالت في الماضي عن الخريطة بفعل الحروب – التي لم تعرف أسلحة حديثة ولا سلاحاً بحجم النووي – فماذا سيكون مصير العالم إذا جنّ جنون المتحكّمين بالأزرار النووية – لا سمح الله – وضغطوا – بالغلط ربّما – على أيّ زرّ منها؟... إنها ولا شك، أسئلة واقعية ومشروعة إزاء ما نرى ونسمع ونحسّ، لاعتقادنا أن العالم والبشرية جمعاء مرهونة «بكبسة زرّ» فقط، لا غير... وعلى سبيل المثال، ما يشهده الكون حالياً من تغيّر إنقلابي في المناخ والتوسّع في ثقب الأوزون... إذ من المؤكّد أن السبب الرئيسي في الإنقلاب المناخي هذا الذي بدأ يشهده كوكبنا منذ بداية التجارب النووية، ليس ناجماً عن الغازات السامة المنبعثة من عوادم السيارات والمصانع وحدها كما يشاع. وإنما هو ناجم أساساً عن التجارب النووية (وعدد هذه التجارب غير المعلن يفوق العدد المعلن، والذي تجاوز الألف تجربة) في المحيطات والأجواء الفضائية. فكل تجربة من هذه التجارب تتسبّب بالمزيد من سخونة أجواء الأرض، وبتدمير المحاصيل الزراعية وإتلاف نسيج طبقة الأوزون.

وهكذا يبدو، أن مشكلة التخلّص من السلاح النووي ليست في عدم توافر قوانين دولية، فهناك الكثير من القرارات الخاصة بمنع انتشار الأسلحة النووية، والتي لم تدخل حيّز التنفيذ، بل إن المشكلة هي في تنفيذ هذه القوانين على أرض الواقع هو العائق. وذلك عائد – على ما يبدو – إلى عدم توافر الرغبة والإرادة الحقيقية في إيجاد حلّ، وإتخاذ مجموعة من المبادرات لإزالة هذا الخطر. وعلى الرغم من المخاوف والتحذيرات الصادرة من مؤسسات مختصّة وشخصيات بارزة وجهات عدّة، فإن الصناعات الحربية النووية هي مصدر أرباح هائلة تفيد منها مراكز ضغط ولوبيات نافذة ومجموعات صناعية وشركات عالمية...

في هذا المجال، يرى ألبير جاكار وستيفان هيسيل مثلاً أن ميزانية السلاح النووي خلال السنوات العشر المقبلة تُقدّر بألف مليار دولار. وعِوَض عن أن تُوَظَّف هذه الأموال في خدمة مشروعات مدنية لما فيه مصلحة المجتمع ومنفعته بأسره، فإن الأجهزة النافذة تستغلها لمصالحها باسم

التقدم التكنولوجي، وباسم خدمة مصالح الإقتصاد القومي أو الوطني، من أجل لعب دور مهم على الساحة الدولية!!!.

هذا، وإذا كانت الحجج والمبررات على هذا النسق، فماذا نفسّر إذن وضع ألمانيا ذات القوة الإقتصادية المعروفة والمتفوّقة في ظل عدم إمتلاكها سلاحاً نووياً؟؟ أليس في ذلك زيف وبطلان لتلك الحجج «النووية»؟

من هذا المنطلق، يتوجب على البشرية جمعاء أن تعمل، وبسرعة على منع الأسلحة النووية، دون أن تبقى حكراً على السياسيين والعسكريين، باعتبار أن خطرها سيطال الجميع دون استثناء، ولن يوفّر أحداً على الإطلاق. وإذا دقّقنا جيّداً في المخاطر الناجمة عن هذا السباق الدولي المحموم إلى السلاح النووي وتباهي الدول بامتلاك الطاقة النووية، لوجدنا أنه ستار يخفي المآسي التي تعيشها شعوب تلك الدول. إذ أنها تمتص الجزء الأكبر من طاقاتها وثرواتها، ومعظم الناس يجهلون مقدار التكلفة المادية والمالية التي يقتضيها إنتاجها، كما يجهلون مدى خطورة قدرتها التدميرية، وتلك أمور لا ينبس إزاءها السياسيون والعسكريون المشرفون على المشروعات النووية ببنت شفة. فهم يخدعون شعوبهم ويناورون للتستير على الأزمات المعيشية والبيئية، من سكن وبطالة وتلوّث وغيرها من القضايا الإستراتيجية البالغة الأهمية لحياة البشر.

وتأكيداً لذلك، وحتى لا يُفسَّر هذا الكلام تفسيراً خاطئا، فإن «لغة الأرقام» تضفي نوعاً من الصدقية في هذا الإطار، كما تعطي البحث حجّة أقوى ودليلاً بالغ الأهمية عن هذه الخطورة الكامنة في عملية امتلاك السلاح النووي واستخدامه، أو التهديد باستخدامه...

فقد أشار جاكار وهيسيل في كتابهما هذا، إلى نقطة هامة، وذلك عندما قدّرا الأموال المخصّصة لصيانة الأسلحة النووية بأكثر من 700 مليار يورو سنوياً... وعلى هذا الأثر، فهما يطالبان بتحويلها إلى مشروعات إقتصادية نافعة... ويقولان أن في فرنسا وحدها يمكن بالميزانية

المخصصة للبرنامج النووي، لسنة واحدة، أن يُبنى 17 مستشفى كبيراً لمعالجة كل أنواع الأمراض، و170 ثانوية، وتوفير أكثر من 100 ألف فرصة عمل.[14]

إزاء هذا الواقع، أليس من حق جاكار أن يتشاءم من مستقبل البشرية، كما من حق البشرية كلها أن تتشاءم أيضاً من مستقبلها أمام هذه الحقائق والوقائع المذهلة؟ وفي ظل ذلك أيضاً، ألا نرى العالم وكأنه يحفر قبره بيديه، أو كما يقال «يسعى إلى موته بنفسه، أو إلى حتفه بظلفه»، وهو يسير إلى الانتحار؟ وأيّ كنوز ومعالم ثقافية وحضارية ستصمد أمام أهوال هذا الدمار الشامل من أسلحة الدمار الشامل والسلاح النووي؟ إنها – ولا شك – كارثة، ماثلة أمام أنظار العالم إذا لم يتدارك العالم هول الكارثة...

في هذا الصدد، نرى الباحث الإستراتيجي غاستون بوتول يعبّر عن هذا الواقع (الكارثة) تعبيراً حيّاً بقوله أن «تأسيس علم للحروب، لم يكن يوماً أكثر إلحاحاً مما هو عليه الآن. إنه حقيقة، «المشكلة الأولى». ويمكن التأكيد دون مبالغة، أن مصير البشرية متعلّق بحلّ هذه المشكلة، وذلك لهذا السبب التقني البسيط وهو أن وسائل القتل والتدمير اليوم، قد تجاوزت فجأة طاقاتنا البنّاءة والخلاّقة. فحروب نابليون لم تدمّر حتى مدينة واحدة، ولا هي أحدثت أية مجاعة. وحرب 1914 خرّبت بعضاً من مناطقنا. أما الحرب العالمية الثانية فقد أتلفت ودمّرت قارة بأسرها. فالحرب التي كانت في القرن الثامن عشر لعبة الأمير، أصبحت الآن مصيبة. وستصبح غداً كارثة شاملة»[15].

وإذا كان عدد البشر البالغ اليوم 6.7 مليارات نسمة، سوف يتناحرون من أجل وضع اليد على مصادر الثروات غير الكافية أصلاً، وسيبيدون بعضهم بعضاً باستخدام السلاح النووي، فمن سيربح العالم بعدئذ عندما يخسر الإنسان نفسه، كما يقال؟ وماذا يبقى من هذا العالم إذا فرغ هذا الإنسان من آدميته وإنسانيّته التي تكرّمت في الكتب السماوية؟ وهل سيبقى أمام هذه الكارثة الشاملة كنوز ثقافية ومعالم حضارية شهدت على عَظَمَة الإنسان في مسيرة نبوغه وإبداعه وعطاءاته الإنسانية؟ ولعلّ في

---

[14]– جاكار وهيسيل «طالبوا بنزع شامل للسلاح النووي». مرجع سابق، ونشرة «أفق»، المرجع السابق نفسه.

[15]– راجع كتاب غاستون بوتول «ظاهرة الحرب». ترجمة إيلي نصّار، مرجع سابق، ص 32.

إلقاء نظرة بسيطة على بعض النماذج والعيّنات من هذه المعالم والكنوز التي طالتها كوارث الحروب وتداعياتها التدميرية المحرقة، تعطي صورة واضحة عن هذا «العمى البشري» وآفة الحرب، و«الداء العقلي» الكامن فيها، ماضوياً وحاضراً ومستقبلاً. كما يتبيّن من ناحية ثانية كم هي لغة نار الحرب أقوى آلاف المرّات من «لغة» الكتب والوثائق والمخطوطات ومحتوياتها، ثم تحويلها رماداً ودخاناً وسواداً، باعتبار أن النار حين تستعر، لا تميّز بين كتب الشعر والأدب والرواية والفلسفة والتاريخ... وبين الكتب المقدّسة، وكذلك بين المخطوطات والوثائق التي لا تُقدّر بثمن. إذ أن كل شيء يشتعل، هو بالنسبة لنار الحقد والجهل والحرب والعمى، وقود لتحيا، فتحوّل ما تأكله رماداً لا ينفع.

ومهما يكن من أمر، فإنّ «ثقافة النار» مهما كانت قوية وملتهبة، فإنها تبقى عاجزة عن إخماد «نار الثقافة»، كما «لم يقدر الذين يستقوون بالنيران لحرق الثقافة، على منع تأليف الكتب ونشرها، حتى أنظمة الكتاب الواحد كانت تستسلم مع الوقت لكل ثقافة جديدة، لأن الكتب إمتداد لوجود العقل قبل كل شيء...»[16]. لكننا نستطيع القول أن عملية حرق أي كتاب أو وثيقة أو مخطوطة هي عملية إغتيال وإعدام، ليس لصاحب المخطوطة والوثيقة والكتاب فقط، بل للإنسان والإنسانية كلها. ولأنها كذلك، فإننا نجد الشاعر هاينريش هاينه يقول «أينما حرق المرء الكتب، فإنه يحرق البشر في النهاية»[17]. وطالما هناك عقول تفكر وتنتج وتبدع، ستبقى المعرفة بخير، ولن تُلْغَى لا بالحريق ولا بغيره...

هذا، ومنذ وجدت الكتابة على مرّ التاريخ، فإن آثارها لم تَنْجُ من الحرائق والحروب والتلف والتدمير، مثلها مثل أصحابها الذين عرفوا الإغتيالات والإعدامات والحرق الجسدي والمادي والمعنوي... كما لم توفّر عمليات الحرق الحربية، والحروب الحارقة، حتى كنوز الكتابات المنقوشة والمحفورة على صفحات الحجارة والجدران في أكثر المعالم الثقافية والحضارية والأثرية في العالم... بمعنى أن عمليات التدمير المحرقة والمحارق التدميرية طالت البشر والحجر على السواء، بكل ما

---

[16]– رامي زيدان في مقالة له بعنوان «محارق الكتب»، نشرت في «ملحق النهار»، السبت 2014/1/11، ص23.

[17]– المرجع السابق ذاته، والصفحة ذاتها.

يكمن فيهم وفيه من أثر يمتّ إلى التراث الإنساني والحضارة البشرية بصلة... وقلّما خلا عصر من عصور التاريخ من «محرقة» ثقافية حضارية، باعتبار أن السمة البارزة للتاريخ هي «تاريخ الحروب»، التي تأكل نارها الأخضر واليابس، فكيف بالورق (إن كان في كتاب أو مخطوطة) الذي تستسهله ألسنة النار أكثر من غيره؟ إضافة إلى أن كثيراً من المعالم والكنوز التاريخية ذات الطابع الأثري الحضاري العريق، والتي كانت تنجو من أعمال الحرق، كانت تطالها يد التدمير والتخريب، في وقت عرفت فيه معالم كثيرة حرقاً وتدميراً معاً، دون أي اعتبار لما تحمله من أهمية وقيمة إنسانية شاملة...

هذا، وإذا كان البعض في القرن العشرين، والقرن الحادي والعشرين أيضاً، يستغرب ما تقوم به بعض الجماعات أو الأفراد، في عزّ أتون الحرب، أو في أيام تداعياتها اللاحقة، من أعمال تطال حرق مكتبات، أو اغتيال رجل علم، أو «إعدام تمثال» لشخصية مرموقة في عالم الأدب والفلسفة والدين... أو ما شابه... فإن عودة سريعة إلى أحداث التاريخ ووقائعه، تثبت لنا بالملموس، أن عمليات الحرق والإغتيال والإعدام، للكتب والمكتبات والكتّاب، كانت «لغة» كل عصر، و«لغة» الكثيرين من الحكام الذين يطمحون لتأبيد حكمهم وسلطتهم عبر قوة الحديد والنار، بغية فرض وجودهم الأوحد، وإقصاء الآخرين وإلغائهم من قاموسهم، وبغية التنعّم بالسلطة والتسلّط بعيداً عن رأي مخالف أو معارض مشاكس... وكثيراً ما كانت السياسة والعامل السياسي والسلطوي هو السبب المباشر لغضب الحاكم المتسلّط والسلطة المتحكّمة...

وانطلاقاً من ذلك، نسلّط الضوء على بعض الوقائع التاريخية في هذا المضمار، للدلالة على «تاريخية» هذه الظاهرة التدميرية المخرّبة للفكر والعلم والعقل من خلال الكتاب والمكتبة والمخطوطة... كما للمعالم الحضارية الأخرى...

الجدير بالذكر، أن ظاهرة حرق الكتب والمخطوطات، أو إتلافها، لها معانيها السلبية ودلالاتها في تأريخ البشرية السياسي والإجتماعي والديني. وهذا ما يبيّنه بوضوح أحد الكتّاب الإختصاصيين في

هذا الموضوع، ناصر الحزيمي[18]، حيث يشير إلى كثير من الحوادث والأخبار التي تتناول تلف الكتب أو إحراقها وإعدامها، ومعظمها بأوامر سلطوية عليا...

وقد يظن البعض أن هذه الظاهرة محصورة في شعب معيّن، أو دولة معينة، أو زعماء وملوك وسلاطين وحكام عرفتهم جغرافيا معينة... لكن الحقيقة تثبت أن أعداء الكتاب والكلمة والثقافة لا ينتمون إلى زمن واحد، ولا إلى بقعة جغرافية محدّدة، بل هم يتواجدون في كل الأزمان والأماكن، ولو لم يعرفوا بعضهم البعض، أو كانوا بعيدين في الجغرافيا والتاريخ عن بعضهم البعض؛ إلا أن قاسماً مشتركاً واحداً هم الذين يجمعهم ويوحّد بينهم (بالرغم من طول المسافات وتباعد العصور)... وهذا القاسم المشترك يتمثّل بـ«عقلية الجهل» والجهل المطلق لقيمة العقل، وما يبدعه هذا العقل في الميدان الإنساني ككل... مشغوفاً بنزعة التفرّد وعدم الإعتراف بالآخر، كمقدمة لإقصائه وإلغائه، وكأن هذا الكون لا يحتمل وجود الآخر المخالف، أو رأياً معارضاً... وهذا ما حدث في عصور ما قبل التاريخ، تماماً مثلما حدث في العصور التاريخية اللاحقة... ولا يزال...

- وعلى سبيل المثال، يحفل زمن ما قبل التاريخ بأبرز ظاهرة حرق كتب في تاريخ الإنسانية، قام بها أحد الأباطرة الصينيين، وهو الإمبراطور «شي هوانغ تي» في العام 212 ق.م. ومن المعروف أن هذا الإمبراطور قاد حربه على الكتب، فأتلف وأحرق آلاف الدراسات التاريخية والأدبية والقانونية، وطارد الأدباء والكتّاب، حيث لاقى كل من قُبض عليه المصير نفسه. ومن الغرابة، أن الامبراطور المذكور (شي هوانغ تي) يعتبر من أهم الشخصيات التي عرفتها الصين، كما تنسب إليه إنجازات حضارية وعسكرية وسياسية كبيرة. فهو الذي شجّع على البدء ببناء السور العظيم في الصين، لوقف هجمات المغول من الشمال... حتى أن الفيلسوف الألماني هيغل، توقّف أمام ظاهرة الإمبراطور الصيني هذا، وحاول تفسير أوامره بحرق الكتب والكتّاب، فرأى أنه فعل ذلك

[18]– أنظر كتابه المعروف بـ«حرق الكتب في التراث العربي»، منشورات الجمل، بيروت/بغداد 2003.

بغية تقوية أسرته الحاكمة من طريق هدم وتدمير ذكرى الأسر الحاكمة السابقة... والحرق في رأي الإمبراطور هو إلغاء الآخر السابق والبدء من جديد من المربّع صفر. [19]

- كذلك الحال بالنسبة لمكتبة الإسكندرية (كنز المعرفة الإغريقية على مرّ العصور)، التي أحرقت في العام 392 م بأمر من الإمبراطور ثيودوسيوس الأول. وكان ذلك قبل قرون ثلاثة من الحريق الشهير لمكتبة الإسكندرية في عام 642 ميلادية، الذي اتهم به زوراً عمرو بن العاص. [20]
- مع العلم أنه في عام 381 ميلادي، استصدر البطريرك تيوفيلس (Théophilos) من القيصر ثيودوسيوس إذناً بتخريب السيرابيون، أكبر ما تبقّى من الأكاديميات وآخرها، وإشعال النيران في مكتبته الثمينة. وبهذه الطريقة فقدت البشرية جزءاً هاماً من ثقافتها لا يمكن تعويضه... إضافة إلى ما فقده الإغريق بشكل خاص، والإنسانية بشكل عام، من كنوز وثروات ثقافية وعلمية وفلسفية وحضارية إثر عمليات الإبادة المنظمة على يد الرومان، وذلك بعد أن «اعتبر الفكر الإغريقي لعنة على البشرية» حسب ما أعلن الأب الروماني إيرونيموس[21].
- وفي القرن السادس عشر أيضاً، أقدم الأرشيدوق «دييغو دي لاندا» على إحراق كل مكتبات المكسيك القديمة. وقد بحث الغزاة الأسبان عن كل الكتب المتعلقة بحضارة المايا ودمّروها تدميراً تاماً بصفتها علوماً وثنية (حيث نجت أربع وثائق منها فقط موجودة الآن في متاحف أوروبية). وقد تحدث الكثير من الشهود عن الصرخات المعذّبة التي أطلقها علماء المايا خلال رؤيتهم أعمالهم وأعمال أسلافهم تحترق أمام أعينهم وتتطاير مع اللهب مما حمل البعض منهم على الانتحار.

---

[19]– راجع مقالة رامي زيدان في «ملحق النهار»، مرجع سابق، ص 23.

[20]– زيغريد هونكه «شمس العرب تسطع على الغرب»، نقله عن الألمانية فاروق بيضون وكمال دسوقي، راجعه ووضع حواشيه مارون عيسى الخوري، دار الجيل والآفاق الجديدة، بيروت، ط8، 1998، ص 362–363.

[21]– زيغريد هونكه، المرجع السابق نفسه، ص 361–362.

- من جهة أخرى، تشير المستشرقة الألمانية زيغريد هونكه في صفحات كثيرة من كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب»[22] إلى مجازر حرق الكتب والمخطوطات. وقد قالت في هذا الإطار أن «يد التعصّب حرقت مليوناً وخمسة آلاف من المجلدات، هي مجهود العرب في الأندلس وثمرة نهضتهم في ثمانية قرون»... يضاف إلى ذلك، أنه غداة إنهيار الدولة الأندلسية، لم تنج الكتب من المحارق. وقد أمر الكاردينال سيسنيروس عام 1501 بحرق «مكتبة الزهراء» التي كانت تحتوي على ما ينوف على 600 ألف مخطوط في مكان يسمى «باب الرملة» في غرناطة، فاختفت العديد من المخطوطات وأمهات الكتب النفيسة... كما كان لمحاكم التفتيش أيضاً دورها المهم في التفتيش عن مثل هذه الكنوز الثقافية والحضارية وتدميرها وإتلافها أو حرقها بالكامل...
- يضاف إلى ذلك، أنه أثناء فترة الحروب الصليبية (الفرنجة)، وفي إحدى حملاتها، تذكر المصادر التاريخية، كيف أقدم الصليبيون على حرق مكتبة بني عمار في طرابلس، حيث كانت تحتوي على كنوز ثمينة من الكتب والمخطوطات النادرة...
- كما تتطرق المصادر التاريخية أيضاً، والكثيرون من المؤرخين العرب والمسلمين، إلى ما فعله المغول عندما غزوا بغداد عام 1258، ولا سيّما بمكتبة بغداد الشهيرة، حيث رموا بكتبها ومخطوطاتها في مياه نهر دجلة، فبقيت هذه المياه أياماً عدّة، مصبوغة باللون الأسود من جرّاء حبر المخطوطات هذه.
- هذا، وبعد ثمانية قرون تقريباً على جريمة المغول البغدادية، فإننا نرى أن ما فعله الأميركيون واحتلالهم للعراق (عام 2003) بحق تراثه وحضارته وإنسانه، يعادل في خطورته مفعول السلاح النووي اليوم بقوته التدميرية الإبادية وأكثر... وكأننا نسمع صوت الزمن والتاريخ المغولي منذ 800 سنة يصرخ في آذاننا قائلاً: كم كنا نحن المغول أرحم على بغداد وناسها وحضارتها من «مغول» القرن الحادي والعشرين (الأميركيين وحلفائهم)... وكم نبدو تلامذة في «مرحلة الروضة» (وليس في المرحلة الابتدائية) أمام معاهدهم وجامعاتهم الإجرامية التدميرية الإبادية... وإزاء هذا

---

[22]– المرجع السابق نفسه، ص 359–363.

الواقع (الإبادي لمتاحف العراق ومكتباتها ومخطوطاتها) نتساءل: هل سيترحّم علينا التاريخ أم سيلعننا معهم – لعنة أخفّ – باعتبار أن الجريمة الإبادية للتراث والحضارة لها مفهوم واحد وليس لها أكثر من مفهوم؟ تلك هي المسألة... وفي هذا الإطار، كم يبدو الأستاذ جهاد الزين مصيباً في قوله: «كلما سقط متحف في بلادنا عَمُرَ متحف في بلاد الغرب»[23].

وبالرغم من كل ذلك، نرى أن القليلين في العالم هم الذين يقدّرون قيمة الكنوز الثقافية والثروات الحضارية الأثرية ذات الطابع التاريخي العريق. لكن الكثيرين يعتبرون أن سرقة هذه الكنوز والمعالم أو حرقها وتدميرها هو إنجاز هائل، أو انتصار بطولي لا يحظى به إلا الأناس الشجعان، أو القادة العظماء... لا سيّما أثناء خوض المعارك والحروب الحاسمة...

- في معرض ذلك، وصف الكاتب الألماني الشهير برتولد بريشت في مؤلّفه «إدانة لوكولوس» مشهد محاكمة هذا القائد الحربي الروماني. حيث ذكر لوكولوس مبرّراً تصرفاته بأنه أخضع لروما 53 مدينة وأملأها بالمجوهرات والذهب والفضة والكنوز الغنيّة التي استردّها من المنتصرين. ومع ذلك صدر بحق هذا «الفائز بانتصارات عديدة والحائز على غنائم كثيرة» حكم الإتهام، وذلك لأنه قد «سبّب بحروبه التي شنّها الكثير من الفواجع والحرمان والمعاناة للبشر»... وفي الواقع كانت روما القديمة في ذلك الوقت مركزاً لتكديس الإنتاج الوافر المسلوب من البلدان الأجنبية. حيث اعتبر السلب في زمن الحروب العدوانية حافزاً للجنود[24].... أَلَم يدمّر الغزاة الأسبان في المكسيك آثار الهنود الحمر من قبائل الأتستيك والمايا ونهبوا كنوزهم الوافرة؟ ألم يكن ذلك ميزة الحروب التي جرت في السنوات اللاحقة؟..
- فأثناء حروب نابليون بونابرت العدوانية، قام بنهب الآثار الغنّية الكثيرة وأمر بنقلها إلى فرنسا... وآثار مصر العربية (الفرعونية) لا تزال في متحف اللوفر والقصور والشوارع الفرنسية شاهدة على

---

[23]– جاء ذلك في مقالته بجريدة «النهار»، الخميس 11 نيسان 2013 بعنوان «10 سنوات على سقوط متحف بغداد».

[24]– أنظر كتاب إ.ن. أرتسيباسوف «خارج نطاق الشرعية»، ترجمة المهندس عبد الرحيم المقداد، دار دمشق للطباعة، دمشق، الطبعة الأولى 1988، ص 202.

ذلك. كما أمر بنقل ألف وخمسمائة مخطوط ثمين من بلجيكا، وتماثيل لاوكون وأبولون وبلفيديريسك وغيرها من إيطاليا... وبعد سقوط نابليون، قرّر المشتركون في مؤتمر فيينا عام 1815 تقسيم ما نهبه نابليون من آثار الفنون فيما بينهم. لكن انتفاضة الشعوب ضدّ تقسيم الكنوز كانت عظيمة وجبارة، لدرجة أنه تمّ اتخاذ قرار بإعادتها إلى أصحابها الشرعيين... وبنظرنا، أنه لو جرى العكس، وتمت عملية التقسيم هذه، فمعناها كان «شرعنة السرقة» وإضفاء الشرعية الدولية عليها، وهذا ما يعادل جريمة السرقة ذاتها...

- وأثناء حرب القرم (1853– 1865) دمّرت القوات الانكليزية والفرنسية الكنوز الفنية في متحف كيرتشا وضواحيها... أما الخسارة التي لحقت بالمدينة ولا تزال، فإنه لا يمكن مقارنتها بأي شيء... وقد يتحجّج الأقوياء والدول ذات الطابع العدواني بأن الحروب لا تخضع للأعراف والقوانين عندما تقع الواقعة، وكل شيء فيها مباح دون استثناء... وهذا ما دفع بالتالي، ربما، إلى وجود اتفاقية دولية خاصة بحماية الآثار والفنون، وُقعت في لاهاي عام 1907. حيث أن المادة 27 منها، تلزم الأطراف المتحاربة أثناء الحصار أو القصف باتخاذ كافة التدابير اللازمة «للإبقاء قدر الإمكان على المعابد والنصب التاريخية والمباني القائمة لأغراض العلم والفن والإحسان». كما تمنع المادة 56 من الإتفاقية نفسها أي سلب أو تخريب أو إلحاق الضرر بالإنتاج الفني والنصب التاريخية، وتلزم جميع الدول بمعاقبة الأشخاص الذين يمارسون هذه الأعمال.
- وبتاريخ 15 نيسان 1935، صادقت 20 دولة من دول أميركا اللاتينية والولايات المتحدة الأميركية على اتفاقية دولية «حول حماية المؤسسات التي تخدم أغراض العلم والفن، وكذلك النصب التاريخية»، وألزمت الإتفاقية الدول في حماية الكنوز الفنية بغضّ النظر عن تبعيّتها الدولية.
- وعند توقيع الإتفاقية أعلن الرئيس الأميركي روزفلت فرانكلين «نقترح على جميع الدول التوقيع على هذه المعاهدة، لأننا نسعى كي يصبح الإعتراف بها دولياً مبدأ حيوياً للحفاظ على المدنيّة

المعاصرة»... مبدأ حيوي!!! وهل كان الجنود والضباط الأميركيون على علم بكلمات رئيسهم، وذلك عندما دمّروا بوحشيّة الآثار الشهيرة في دول الهند الصينية؟

- وبتاريخ 14 أيار 1954 صادقت الدول على اتفاقية لاهاي «حول حماية الكنوز الفنية في حال النزاع المسلح» حيث أكدت الإتفاقية على التزام الدول في حماية الكنوز الفنية والمحافظة عليها في حال نشوب أي نزاع مسلّح.
- كما تمّ بتاريخ 14 تشرين الثاني عام 1970 عقد إتفاقية دولية «حول التدابير الموجّهة لمنع نقل أو جلب الكنوز الفنية أو تحويل ملكيتها». وأخيراً أكد البروتوكول الإضافي رقم 1 على حماية الكنوز الفنية في حال النزاع المسلح.
- وبالتالي، هنالك في القانون الدولي المعاصر مبدأ معترف به من قبل الجميع، يقضي بحماية الكنوز الفنية من جانب المتحاربين. حتى أن بعض العلماء البرجوازيين يعترفون بهذا المبدأ. ومنهم على سبيل المثال ل. أوبنغهايم الذي اعترف بإمكانية اللجوء إلى الحرب كوسيلة لحل الخلافات بين الدول، حيث كتب قائلاً: «ولو كان المعدن الذي سكب منه تمثال ما ضرورياً للغاية لسكب المدافع، فإنه لا يجوز أبداً استخدام التمثال لهذا الغرض»[25].
- والجدير بالذكر، أنه وبالرغم من توقيع الإتفاقيات الخاصة بهذا الشأن، نرى بأن كثيراً من الدول – حتى الموقّعة منها – لا تلتزم بتنفيذها. إذ، في الحرب العالمية الأولى مثلاً، دمّرت القوات الألمانية النصب التذكارية والكنوز الفنية في فرنسا وبلجيكا، ونقلت قسماً منها إلى ألمانيا (وكأنها ردّة فعل على نهب نابليون لآثارها سابقاً)...
- وفي الحرب العالمية الثانية، تعرضت الكنوز الفنية والثقافية إلى أضرار جسيمة. وحسب المعلومات التي أوردتها اليونيسكو، فإن نهب الكنوز الثقافية كان صفة مميّزة لهذه الحرب. إذ استعدّ قادة ألمانيا الهتلرية مسبقاً لهذا الفعل الشنيع، حيث قامت القيادة المركزية بتكليف أركان العمليات الخاصة التي يشرف عليها روزنبرغ، بهذه المهمة. ولقي نشاط الأركان مؤازرة تامة من

---

[25]– أرتسيبا سوف، مرجع سابق، ص 204.

قبل القيادة الحربية لألمانيا النازية. فمنذ الأيام الأولى لهجوم ألمانيا الهتلرية على بولونيا، أسّس النازيون «متحف الفوهرر» في مدينة لينتسي، وذلك لجمع روائع الثقافة العالمية. ثم بدأت الفكرة تتجسّد منذ نهاية عام 1939 وبداية عام 1940 على حساب نهب المتاحف البولونية.

- يضاف إلى ذلك، أن عملية النهب والسلب للكنوز الثقافية لم تنحصر بالأشخاص والقادة العسكريين فقط، بل وصل الأمر إلى منظمات دولية متعدّدة تنافست فيما بينها على هذا الصعيد.
- فبتاريخ 16 كانون الأول عام 1939 مثلاً، أصدر الحاكم العام لبولونيا (فرانك) أمراً يقضي بالإستيلاء على الأشياء الفنية في بولونيا، وبعد فترة وجيزة أرسل فرانك خبراً إلى هتلر يعلمه فيه عن تنفيذ ما أمر به. أما فرانك فلم ينس نفسه. فقد سرق من متاحف وارسو وكراكوف السجاد والخزف الصيني واللوحات الفنية القيّمة وغيرها.
- وهكذا كان حال النهب المنظّم للكنوز الثقافية في الاتحاد السوفياتي وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا وفرنسا وهولندا وبلجيكا وهنغاريا ودول البلقان. إذ تبين بشكل مقنع أثناء المحاكمة في نورمبرغ أن شخصيات عديدة مارست النهب من أمثال غيرنغ وبورمان وروبنتروب وكيتل ودينيتز وريديدر وإيودل... وقد صرّح المدّعي السوفياتي رودينكو في هذا الصدد قائلاً: «لقد نهب غيرنغ ونهب وزراء الرايخ ومفوّضو الرايخ من المناطق المحتلة، ونهب ممثلو القيادة الحربية إبتداءً من الجنرال وانتهاء بالجندي... كما أن منظمات متعددة قد نهبت وكانت تتنافس فيما بينها»[26].
- من جهة أخرى، وقبل الهجوم على الإتحاد السوفياتي، وضعت خطة لنقل الكنوز الفنية والثقافية منه. وتمّ تشكيل مجموعة خاصة لهذا الغرض بقيادة المفوض النازي «أوتيكال». وفي ربيع عام 1941 عملت بعض وحدات الجيش الهتلري إلى جانب أركان أوتيكال الخاصة على سرقة وإرسال التحف الفنية من المتاحف وصالات العرض، وسرقة الأعمال العلمية من المكتبات والأرشيف وإرسالها إلى ألمانيا. وبتاريخ 5 نيسان 1941 صدرت توجيهات من القيادة العليا لألمانيا النازية تقضي بتقديم كافة المساعدات الممكنة لتحقيق مهمة المفوّض أوتيكال بشكل سريع ودقيق...

---

[26]– أرتسيباسوف، مرجع سابق، ص 205.

- هذا، ومن خلال العودة إلى الملفات الألمانية والسوفياتية الخاصة بالحرب العالمية الثانية، نجد إصراراً وتصميماً وتخطيطاً ألمانياً مبرمجاً ومنظّماً بدقة إزاء بعض المدن السوفياتية ذات التاريخ العريق (كبطرسبورغ) ونهب ثرواتها وكنوزها الثقافية لإكمال «متحف الفوهرر». وعلى هذا الأساس، فإننا لا نستغرب أمر الأركان البحرية الحربية الألمانية الهتلرية (رقم 1–آ–41/160، الصادر بتاريخ 29/أيلول عام 1941، والذي جاء فيه ما يلي: «قرّر الفوهرر إزالة بطرسبورغ عن وجه الأرض...». حيث افترض محاصرة المدينة وقصفها بالمدافع من كافة العيارات وبالقنابل من الجو، وذلك لتسويتها مع سطح الأرض... حيث يعرف العالم أجمع عظمة الكنوز الفنية والثقافية الموجودة في مدينة بطرسبورغ هذه. ولأن الهتلريين يعرفون ذلك أيضاً، فاستعدوا بشكل دقيق للإستيلاء عليها. وفي صيف عام 1941 بدأ المفوض الخاص لهتلر «هانس بوسي» الإعداد لنهب كنوز لينينغراد ونقل ثرواتها إلى ألمانيا لإكمال «متحف الفوهرر» في لينتسي. وفي بداية شهر آب أرسل سكرتيره الخاص كاي ميولمان والماريشال غيرنغ إلى منطقة لينينغراد. والمعروف أن كاي ميولمان قد «برز» سابقاً في بولونيا عندما كان مفوضاً لمصادرة الكنوز الفنية فيها. أما بالنسبة لغيرنغ كان ينتظر هذه الفرصة لامتلاك كنوز لينينغراد القيّمة.
- لكن لينينغراد صمدت وفوّتت عليهم جمع روائع هذه الكنوز، لذلك جرت الرياح السوفياتية عكس ما كانت تشتهي السفن الألمانية. أما في ضواحي لينينغراد حيث تواجد الغزاة النازيون فكانت الخسارة التي لحقت بالكنوز الثقافية كبيرة جداً. حيث يذكر أرتسيباسوف في هذه المسألة أسماء معالم أثرية وحضارية بارزة، وأرقاماً مذهلة تؤكد على العقلية الإجرامية التخريبية لدى الإنسان، مثلما تؤكد على عبقريته ونبوغه... فيقول أرتسيباسوف ما يلي: «ان الكثير من النصب التاريخية والمعالم الثقافية في لينينغراد قد تعرضت للتدمير البربري، ومنها مجموعة بتروفوريتس، حيث نهب اللصوص الفاشيست القصر الكبير وقصر مارلي وقصر مونبليزيز وقصر الكويتدج، ونقلوا إلى ألمانيا عشرات الآلاف من معروضات المتاحف. كما حرقوا القصر الكبير وهو إبداع عظيم للمهندس المعماري فارفولومي راستريلي... ودمّروا قصر مارلي باستخدام الألغام الموقوتة، وخربوا

مجموعة النوافير الشهيرة الموجودة في حدائق البيتروفوريتس... كما دمّروا أيضاً شواهد الثقافة العالمية كبيت متحف ليون تولتسوي في باسنايا بوليانا. وبيت متحف الموسيقار الروسي العظيم ب. تشايكوفسكي في كلين. وبيت متحف تشيخوف في تاغانزوغ. وبيت متحف بوشكين، وبيت متحف تسيولكوفسك في كالوغا، كما تم تفجير دير القدس الجديدة في مدينة إسترا (منطقة موسكو) الذي تأسس في عام 1656 وأعيد بناؤه في القرن الثامن عشر على يد المهندسين الشهيرين راستريلي وكازاكوف»...

- ويتابع أرتسيباسوف كلامه قائلاً: «وقد أقرّت اللجنة الحكومية الإستثنائية للتحري عن جرائم المحتلين الألمان الفاشيست في الأراضي السوفياتية بأنه تمّ تدمير 427 متحفاً و167 مسرحاً و334 مؤسسة للتعليم العالي إلخ... إن كثيراً من الإنتاج الفني وروائع الثقافة العالمية قد اختفت بلا أثر. وعلى سبيل المثال، حتى وقتنا الحاضر لم يعثر على آثار غرفة البانتار التي سرقها المحتلون الألمان من قصر إيكاتيرينا في القرية القيصرية...»[27].
- يتبين من خلال ذلك، أن أسلوب الغزاة – أينما كانوا – في هذا المضمار هو واحد. حيث يعمدون أولاً إلى سرقة التحف والكنوز، ومن بعدها يمارسون عملية الهدم والتخريب والحرق، بغية إخفاء طابع النهب المنظم لهذه الآثار والمعالم الحضارية... وكأن الحريق هو الذي قضى على كل شيء، وليست أيديهم هي التي فعلت ما فعلت... بيد أن التاريخ لم يعرف أبداً مثل هذه الإبادة الشاملة والمنظّمة للثقافة القومية. وهذا ما عبّر عنه أيضاً المدّعي العام السوفياتي أثناء محاكمات نورمبورغ بقوله: «إن تدنيس وتدمير المعالم التاريخية والثقافية على الأراضي السوفياتية المغتصبة، وكذلك تهديم المؤسسات الثقافية المتعددة التي بنتها السلطة السوفياتية، يمثل جزءاً من خطة سخيفة وحشية دبرتها ونفذتها الحكومة الهتلرية بغية القضاء على الثقافة القومية الروسية، وكذلك القضاء على الثقافات القومية لشعوب الاتحاد السوفياتي»[28]. وهذا ما عبّر عنه أيضاً

---

[27]– أرتسيباسوف، مرجع سابق، ص 206.

[28]– المرجع السابق نفسه، والصفحة نفسها.

المدّعي العام الأميركي «ستارك» في محاكمات نورمبورغ بقوله «أن نهب السلطة الهتلرية للكنوز الثقافية هو عبارة عن عمل تعسّفي منظّم للقضاء على ثقافات الشعوب الأوروبية كلها تقريباً».

- هذا، ومن المؤسف فعلاً أن ينبري كتّاب وباحثون وأيديولوجيّون – كما في كثير من الدول ذات الطابع الإستعماري – للدفاع عن سياسة الدولة (أو الحكومة) التي اتخذت قرار النهب والسلب والتدمير والحرق للكنوز الثقافية والمعالم الحضارية التاريخية. والأكثر من ذلك، فإنهم يوهمون الرأي العام الدولي بأن ما جرى هو «إنقاذ» لهذه الكنوز وليس سرقة ونهب... وهذا قمة العمل الإنساني في الحروب الوحشية المدمِّرة!!! وهذا ما ظهر في ألمانيا الإتحادية فعلاً، من «باحثين» كتبوا بأن النازيين قد «حافظوا» على الكنوز الثقافية في الأراضي التي احتلوها. فالباحث الألماني مثلاً، ك. بوزي تحدث بشكل مثير عن «حماية الكنوز الثقافية» مؤكداً أن المفوّضين بالكنوز الثقافية كانوا يقدّمون استقالاتهم عندما لا تُنفَّذ توصياتهم في نقل هذه الكنوز إلى ألمانيا (ولا سيّما إلى «متحف الفوهرر»)، باعتبار أن هذه الكنوز التي نقلت إلى ألمانيا هي –باعترافه – من روائع الفنون من إيطاليا وفرنسا وبولونيا والإتحاد السوفياتي... ثم يقول بأن «هذه الكنوز قد نقلت لغاية وحيدة... لإنقاذها»[29]. وكأن أصحابها الشرعيين كانوا عاجزين عن حمايتها والمحافظة عليها وإنقاذها.
- في هذا الإطار، سرعان ما تتبادر إلى الأذهان العبارة المشهورة للزعيم النازي أدولف هتلر، القائلة «أكذب ثم أكذب ثم أكذب، يصدّقك الناس». تماماً كما كان يقول ساعده الأيمن وزير الدعاية النازي جوزف غوبلز «كلما سمعت بكلمة ثقافة يصبح لديّ استعداد لشهر مسدسي»...
- من جهة أخرى، لم يكن الأمريكان والانكليز أرحم على الكنوز الثقافية والمعالم الحضارية من الألمان في هذا المجال. حيث يشير الجنرال السوفياتي جوكوف في مذكراته أنه أثناء الحرب العالمية الثانية، يوم كان القائد العام للقوات السوفياتية في ألمانيا، قدّم تقريراً إلى ستالين أخبره فيه أن الحلفاء (خصوصاً الأميركيين والبريطانيين) قد نقلوا أكثر من 100 طن من ذهب البنك

---

[29]– أرتسيباسوف، مرجع سابق، ص 207.

الألماني، وحمّلوا حوالي أربع قاطرات بالعملات الورقية، ونهبوا اللوحات والكنوز الفنية كلها من متاحف برلين.

- يضاف إلى ذلك، ورغم الاتفاقيات الدولية التي وقّعت عليها أميركا وبريطانيا بخصوص حماية الكنوز الثقافية والفنية، يتبين أن العدوان الأميركي ضد دول الهند الصينية ألحق خسارة عظيمة بالثقافة العالمية. مع العلم أنه في أيام الحرب في فيتنام بذل الجهاز الدعائي للولايات المتحدة الأميركية قصارى جهوده كي يصوّر القوات الأميركية بأنها «نصيرة الثقافة الآسيوية وحامية لها». واشترطت إتفاقية عام 1954 ضرورة «تربية تشكيل خاص من القوات المسلحة بروح احترام الثقافة والكنوز الثقافية لجميع الشعوب وذلك في زمن السلم» (المادة 7. الفقرة 1)، فهل تشبّع الجنود الأميركيون باحترام الثقافة والكنوز الثقافية؟ طبعاً لا. وقد تصرّفوا كمخرّبين للثقافة المحلية. وينسب ذلك خاصة للقوات الجويّة الأميركية التي لم ترحم الآثار القديمة ولا الكنائس ولا المعابد البوذية ولا المقدّسات. حيث فقط خلال سنوات الحرب الأربع تمّ قصف 457 كنيسة و326 معبداً بوذياً في فيتنام الديمقراطية... وقد وصل الأمر بكثير من سياسيّي وعسكريّي ومثقّفي الهند الصينية إلى القول دون مبالغة بأن الطغمة العسكرية الأميركية قد مارست الجينوسيد الثقافي (أي الإبادة) في الهند الصينية.
- يضاف إلى ذلك، أنه من المعروف أن الطيران الأميركي قد قصف مدينة «درسدن» بلا مبرّر، وذلك في شباط 1945. حيث قامت 1400 طائرة قاذفة أميركية خلال يومين، برمي 3749 طن من القنابل، فقتلت أكثر من 135 ألف إنسان، ودمّرت 35470 مبنى... حيث تذكر بعض المراجع التاريخية أنه كثيراً ما جازف الجنود السوفيات بحياتهم لإنقاذ لوحات الرسم الكلاسيكي من بين أنقاض صالة العرض في درسدن والتي بلغت حوالي 750 لوحة لكبار الفنانين الألمان والهولنديين والإيطاليين والإسبانيين والفرنسيين[30]...

[30]– أرتسيباسوف، مرجع سابق، ص 209–210.

- هذا وتعتبر دولة الإحتلال الإسرائيلي (التي قامت عام 1948 على أرض فلسطين العربية) وريثة الإجرام والهدم والتخريب والحرق بكل ألوانه وأشكاله... وبالرغم من مصادقتها على اتفاقية لاهاي عام 1954 «حول حماية الكنوز الثقافية في حال النزاع المسلّح»، إلا أن ذلك لم يكن إلا خدعة من قبلها، ومن قبل حماتها الدوليين... وقد يتوضح ذلك بكثير من عمليات خرقها لهذه الاتفاقية، ومنها على سبيل المثال، لا الحصر:

1- جريمتها في إحراق المسجد الأقصى في القدس الشريف بتاريخ 21آب 1969. ومن خلال العودة إلى بيانات مجلس الأمن الدولي، أعتبر البيان الذي أدلى به مندوب الجزائر في مجلس الأمن (عزوت)أن يوم 21 آب عام 1969 هو من أتعس الأيام بالنسبة للمسلمين في العالم كله. وان ما فعلته الطغمة العسكرية الإسرائيلية هو جريمة شنيعة ضد الحضارة الإنسانية والقيم الروحية في العالم...

2- إن دولة الإحتلال الإسرائيلي التي قامت على الجثث والجماجم والدم والقتل والحرق لا تتنفس إلا الإجرام والمذابح، وعلى هذه النفسية ربّت جنودها، فتفوّقوا في هذه المدرسة العنصرية الدموية. وأينما ظهروا كانوا مخرّبين ومجرمين بامتياز (بينما يتهمون غيرهم بذلك)... فبعد جلائهم عن منطقة قناة السويس في عام 1973 دمّروا بالكامل معهد الأبحاث الخاصة، وتخاطفوا الأجهزة الثمينة. كما دمّروا الكثير من روائع الفن، ودنّسوا معالم الثقافة، وسرقوا أكثر الكنوز قيمة.

3- أزال الإسرائيليون عن وجه الأرض مجموعة بيوت أبو سعود الموجودة بالقرب من حائط المبكى في القدس، وهي مجموعة معمارية من الزمن القديم، وتعتبر من أكثر الأماكن شهرة في العالم. ونهب المحتلون بعض المخطوطات الثمينة من متحف فلسطين في القدس. وعندما أخلوا مدينة القنيطرة السورية (طبقاً لاتفاقية فصل القوات) دمّر المعتدون المعابد والمشافي، وسلبوا ألواح المرمر والأثاث والأيقونات الثمينة التي تعود إلى القرن الرابع عشر والتماثيل وغيرها.

4- أثناء الإجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982، قام الإسرائيليون بتدمير منظم وتخريب للتراث الثقافي للشعبين اللبناني والفلسطين. وقد أتلف الجنود الإسرائيليون مئات اللوحات الفنيّة الرائعة

المحفوظة في متحف الفنون التشكيلية في بيروت. كما تمّ في العاصمة اللبنانية، بيروت، نهب الكثير من المؤسسات التعليمية والثقافية ومركز الأبحاث الفلسطيني (الذي يعتبر من أهم مراكز الأبحاث العربية الخاصّة بفلسطين) وسلبوا المخطوطات والكتب النادرة ونقلوها إلى فلسطين المحتلة، حيث طالبت منظمة التحرير الفلسطينية كثيراً باسترجاعها... ولم تنج مدينة لبنانية أو بلدة فيها آثار من السرقات الإسرائيلية لها:

5- والمعروف بأن وزير الدفاع الإسرائيلي السّابق موشي دايان كان خبيراً محترفاً في سرقة الآثار الفلسطينية، بعد أن أسس جمعية إحتكارية خاصة لبيع الآثار القديمة المسروقة إلى محال بيع التحف الأجنبية، حتى صار يعرف أخيراً بـ: «جنرال الآثار»...

6- إضافة إلى نهب وتخريب الكنوز الثقافية، قام الغزاة الإسرائيليون في الأراضي المحتلة بأعمال التنقيب وسرقة الآثار وتدمير المعالم الحضارية التاريخية الفلسطينية، وهذا ما يتعارض مع المادة 32 من الوصايا الدولية التي أقرها المؤتمر العام لمنظمة اليونيسكو في عام 1956. وفي الدورة الخامسة عشرة للمؤتمر العام لليونيسكو اتخاذ القرار رقم 3343 الذي طلب من إسرائيل «الإمتناع عن التنقيب ونقل الكنوز وتغيير طابعها التاريخي والثقافي المميّز لها»... لكن إسرائيل، كانت ولا تزال، تضرب بكل القرارات الدولية عرض الحائط – إلا تلك التي تكون لمصلحتها – مدعومة من المعسكر الغربي، وعلى رأسه الولايات المتحدة الأميركية...

هذا غيض من فيض على هذا الصعيد. ولا زلنا في القرن الحادي والعشرين نشهد عيّنات ونماذج من تدمير وحرق لكنوز ومعالم ثقافية وحضارية كثيرة على هذا الكوكب... ولكن بتقنية متطوّرة جداً عن ذي قبل، وأكثر فتكاً... ولو كانت تستمد أسلوبها في الحرق والإجرام والتدمير من عقلية التصحّر والتصحّر العقلي، كما من عقليّة التحجّر والتحجّر العقلي، التي لا تميّز بين العصور والأزمان والسنين، ولا فرق عندها إن كان العصر عصراً حجرياً أم عصر الفضاء والالكترونيات ... طالما أن الهدف التدميري هو القاسم المشترك بين هذا وذاك...

خلاصة عامّة:

إنطلاقاً من إيماننا وقناعتنا بخطورة وكوارثية حرق الكتب والمكتبات، وتدمير المعالم التراثية والثقافية والحضارية، يظن الجهلة التكفيريون أنهم بحرق الكتب وإتلافها، إنما يحرقون العقل ويُتْلِفُون الفكر، لكنهم واهمون. لأن العقل يُحْرِقْ ولا يُحْرَقْ، والفكر يتوقّد وإن ترمّد. وكلّما حُرق كتاب ظنّا بحرق صاحبه، كلّما توقّدت نار العقل وزادت حرارة عطائها المعرفيّ أضعاف مضاعفة. وكلّما دُمِّر متحف أو مكتبة ذات طابع تراثي، ينتفض الزمن والتاريخ من قلب التراث الحضاري، مؤكداً غلبة التوهّج الفكري العقلاني الإنساني المعطاء، على لهيب الجهل والجهالة والجهلاء الحاقدين، اللاعقلانيين واللاإنسانييّن. وطالما هناك آدميّون مؤمنون بقدسيّة العقل وعَظَمَة الفكر، فستبقى المعرفة والثقافة والعلم بخير، يرفعون إشارة النصر من تحت ركام الهدم وأنقاض الدمار الممنهج واللاممنهج، إلى ما لا نهاية. ومن يظنّ أن «السّم السقراطي» قتل فكر سقراط بموته الجسدي، فهو واهم. ومن يظنّ أن قتل كوبرنيكوس أوقف عملية الأرض الكروية عن الدوران، فهو واهم. ومن يظنّ أن فكر إبن رشد مات بموته، فهو واهم أيضاً... وسيبقى أمر الله «إقرأ» سارياً إلى ما شاء الله، إن كان ذلك كلمة في كتاب أو نقشاً على حجر.. لا فرق...

أخيراً نقول ونردِّد مع أرتسيباسوف أن «الحرب جريمة» فعلاً... ومنذ نشأة البشرية والحروب قائمة... وقد «بلغ عدد الحروب منذ فجر تاريخ البشرية 14513 حرباً، مات فيها 3 مليار و640 مليون إنسان. وتعادل المقدّرات المادية، التي تمّ تدميرها في هذه الحروب شريطاً ذهبياً بعرض 8 كيلومتر وسماكة 10 أمتار، يحزم الكرة الأرضية في خط الإستواء»[31].

[31]– أرتسيباسوف، خارج نطاق الشرعية، مرجع سابق، ص 28.